# آفاق

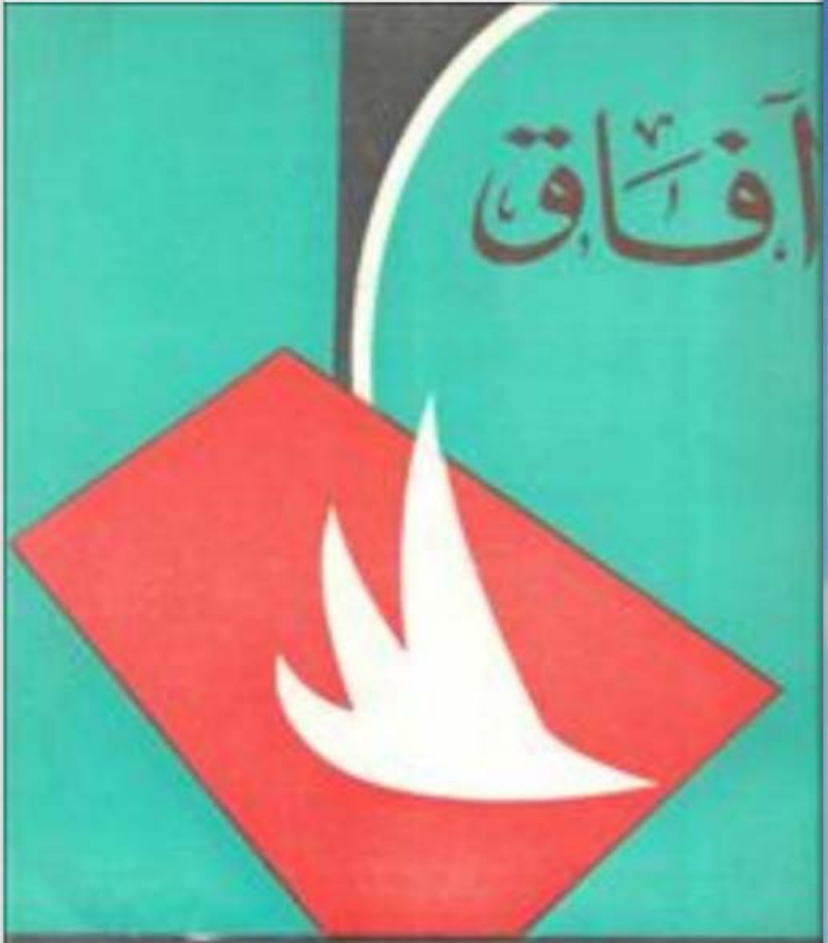

مجلة يصدرها اتحاد كتاب المغرب العربي

السنة الأولى ـ العدد الرابع

# الآفاق الموضوعية والفنية في شعر شاعر الحمراء

عبد الكريم غلاب

الكتاب الذى اصدره السيد أحمد الشرقاوى اقبال ، «شاعر الحمراء ، فى الغربال» اتاح للكثيرين ممن كانوا بعيدين عن الشاعر محمد ابن ابراهيم واجوائه أن يطلعوا على نماذج من اشعاره ، فقد أتيح لهذا الشاعر من الشهرة وذيوع الصيت ما لم يتح لشعره وديوانه ، فلم ينشر الديوان ، ولم يشتهر من شعره الا مقطعات رواها الرواة لطرافتها او غرابتها او تمردها على الجانب الخلقى والاجتماعى ، وهى اذا كانت تمثل جانبا من حياة الشاعر او بعض نزعات فنه ، فهى لا تمثل أدبه وفنه ، فالحكم عليه من خلال تلك المقطعات يعتبر ظلما لشعر الشاعر وان انصف حياته ونزواته ، لذلك فان تسجيل نماذج من شعر محمد بن ابراهيم كان فى حد ذاته انقاذا لتراث هذا الشاعر وخدمة لادبه وتمكينا لدارسيه ونقاده من مادة يزنون بها ادبه الذى كادت تطغى عليه اسطورة صاغها او صيغت حول حياته .

والذين درسوا شاعر الحمراء كشاعر لم يستطيعوا ان يتخلصوا من تأثير الاسطورة ، فقد نشرت حياته ظلا مديدا حول فنه الادبى فأصبح المتحدثون عنه بين تأثيرين لا مجال للتخلص من احدهما : اما اعجاب بالحياة البوهيمية التى عاشها ، والتى لم يرحم فيها شخصه و لاانسانيته، ومن هذا الاعجاب استمدوا تقديرهم للشاعر وفتنتهم بشعره ، وأغلب هذه الفتنة كانت بشعره الماجن : خمرياته وغزله وسخريته واستهتاره ، واما النقمة على اخلاقه وسلوكه ومن هذه النافذة يطلون على ادبه .

وكلا التأثيرين مرفوض فى ميزان النقد الادبى ، فليست حياة

الشاعر بذات تأثير فى وزن شعره من حيث هو فن او فى تقييم ميزاته ومباذله ، الا ان تكون تفسيرا لجانب من جوانب التأثير النفسى او الفكرى او الفنى فى شعره وادبه ، اما أن يكون السلوك نفسه او الحياة كمادة هى النافذة التى يطل منها الناقد على مظاهر الجمال او القبح فى الشعر ، فذلك ما يرفضه النقد و لايقبله اى ميزان سليم .

واعتقد ان للشاعر ابن ابراهيم دخلا كبيرا فى فرض هذين التأثيرين على قراء شعره ، فقد كان يروى شعره ويرويه وقلما ينشره ، وهم عدة مرات بجمع ديوانه ولم يفعل وكانت مجالس الانس والمنادمة وسيلتـــه الى اذاعة ما يريد اذاعته من شعره ، وأكثر ما كان يقترن بهذه المجالس من شعره خمرياته وغزله ومجونه وسخرياته وهجوه . ولذلك فقد كانت له يد فى جناية حياته على شعره ، لان الشعر عنـــده كان مقترنا بهذه الحياة ، لا من حيث هى مصدره فحسب ، ولكن كذلك من حيث كانت وسيلته الى اذاعة شعره والتعريف به .

لهذا سأحاول فى هذه الدراسة للجانب الفنى فى شعر ابن ابراهيم أن أتخلص من تأثير حياته سواء فى ناحيتها الايجابية او السلبية .

وليس من شك فى ان ما رواه مؤلف «شاعر الحمراء فى الغربال» من مقطعات انما هو نماذج ، ولكنى أعتقد انها نماذج كافية لتقييم ادب ابن ابراهيم ووضعه فى مكانه بين الشعراء المخضرمين فى الادب المغربى الحديث لانها نماذج تمثل آفاق شعره من جهة ، وتمثل طبيعة فنه ومظاهر هذا الفن من جهة اخرى ، ولذلك فليس منالضرورى الالمام بكل شعره ما دام فى النماذج ما يكفى لتصور آفاق الشاعر النفسية والشعرية وطاقته الفنية واسلوبه الادبى .

ومن خلال دراسة هذه النماذج نستطيع ان نخرج بنتيجة ايجابية ، وهى ان آفاق الشاعر محدودة لا تكاد تعدو النظرة السطحية للشعر التى أدركها المتأدبون من كتب النقد المتأخرة ، فالشعر عند هؤلاء مدح وغزل وهجو ورثاء وخمر ، دعاهم الى تصنيف الشعر فى هذه الابواب رغبتهم فى الحصر والتبويب ، ولذلك فاذا كان يغلب على القصيدة مثـلا جانب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المدح يسلكونها فى باب المدح دون ان يثير انتباههم ما فيها من فلسفة أو وصف او سياسة او دفاع عن مبدأ او اشادة بوطن او قبيلة ، فحب التصنيف والتبويب هو الذى دفعهم دائما الى ان يحصروا ابواب الشعر فيما ذكروه من اغراض .

هذه جناية النقاد على تقييم آفاق الشعر العربى . وهى ليست جناية تاريخية فحسب ، ولكنها جناية واقعية كذلك ، فالمتأدبون المقلدون من شعراء العرب غير المطبوعين على الاخص حدت آفاق شعرهم فى الابواب التى ذكرها هؤلاء النقاد حتى اصبح الشعر عندهم لا يكاد يخرج عن مدح ورثاء وهجو وخمر وغزل .

فهل كان لهذه الآفاق المحدودة أثرها فى شعر ابن ابراهيم او شاعر الحمراء كما اشتهر ؟

أعتقد ذلك ، فشعر ابن ابراهيم فى معظمه لا يكاد يخلو من هذه الابواب التقليدية ، وأؤكد : فى معظمه ، فان هناك فلتات سأشير اليها ،

وسبب آخر للافق الضيق عند ابن ابراهيم ، هو ثقافته المحدودة وثقافته الادبية على الاخص ، فهو لم يكن يعرف لغة اجنبية ، ولم يكن يطلع على ما يترجم من الادب الاوربى او الامريكى ، ولم يكن له المام كاف بالادب العربى لانه ـ فيما يبدو ـ لم يكن يقرأ الا لماما ، فالنماذج والمثل أمامه محدودة ، ولذلك لم يكن ينتظر منه ان يمتد شعره فى الآفاق التى لا يدركها عقله ولا تدركها ثقافته ، فقد مضى الزمن الذى كان يعتقد فيه أن الشاعر او الاديب فى غير ما حاجة الى ثقافة ، وانه ذو وحى يوحى اليه برائعات القوافى وجياد الابيات .

ومن اثر هذا الافق الثقافى المحدود انه لا يتهيأ للشعر ولا يجيد صنعته . فأنت تلمح فيه الارتجال والسرعة وسوء الاختيار فى اللفظ والاسلوب والتركيب حتى انك تجد مقطعات لا يمكن ان تسلكها فى عداد الشعر ، لا من حيث تفاهة المضمون وبساطته فحسب ، ولكن من حيث ركاكة الاسلوب وضعف مستواه اللفظى والتعبيرى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونعود الى الافق الموضوعى الضيق عند الشاعر ابن ابراهيم لنجد أن أغلب شعره مدح فى الملك او الكلاوى وقواد ناحية مراكش او مدح لفرنسا وتمجيد لعظمتها ، وان باقى آفاقه هجاء او غزل او خمريات .

والمهم فى هذا انه لا يختار ، فالمدح ارتماء فى الاحضان ، تكاد تحس منه رائحة الاستجداء ومد اليد ، وحينما يقترن هذا الاستجـــداء ـ لكل ذى مال والذى لا اختيار فيه ـ بضعف القدرة الفنية ينحدر الشعر الى أسفل درك ، وذلك ما تلمحه فى معظم شعره المادح ، والهجو من جنس المدح يبدو فيه ضعف الاختيار والنقص الفاضح فى الطاقة الفنية ، فكما تجد فى المدح مثل هذه الابيات :

مثل التهامى ما فى الارض من بطل ... شهادة صدرت من أعظـــم الدول
هذى فرنسا وذا وسام عزتهـــا ... وأنت أنت عديم الند والمثـــل

تجد فى الهجو مثل هذه الابيات :

ذكـــروا ذا الكلب فى مراكش ... وهـــو جرو كـان فيما يتجـــر
ذكـــروه وهو فى فـــاس فقـــد ... نسى الماضى ، وهل من مدكـــر
قـــد عرفنـــاك فلا تتعنـــد ... أيها المخذول مثـــل المنتصـــر
وعلمنـــا أنك الكلب الـــذى ... كان من قبـــل عقـورا فأبـــر

ويتمرد ابن ابراهيم أحيانا على المدح والهجو ليساير بعض الاحداث، فقد كان فى شبابه على الاخص يجد نفسه بين مجموعة من الشباب الذين طوعوا الشعر لاحداث وطنية او سياسية . واذا كنت لا أعتقد انه اندفع فى هذا الميدان بدافع وطنى او بدافع الشعور بالرغبة فى التجديـد والتطـور بالشعر ، فقد كانت به رغبة لمسايرة بعض الشعراء الشبان حتى لا يقصر عن ميدانهم ، فقال الشعر فى حادثة ابن البغدادى الذى كان يجلد الشبان الوطنيين ، وفى احداث فلسطين ، وفى الحرب العظمى الثانية ، وفى بعض الاهداف الاصلاحية .

وهنا يكمن له الافق الضيق مرة اخرى لينحدر بهذا المضمون الشعرى الى المدح او الهجو او الى تفاهة المضمون وبساطة المعنى ، فقد بدا القصيدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التى تحدث فيها عن ابن البغدادى بأبيات آسية متألمة يمكن ان تصلح مقدمة رثاء او فاتحة حديث عن كارثة، هى اربعة ابيات ـ فيما روى الراوى ـ مختارة اللفظ آسية المعنى ، وسرعان ما انقلب الى هجاء ابن البغدادى .

لقد برع فى الهجو حقا ، ولكن ألا تثير الحادثة غير هجو شخصى ، ان سما لفظا او تعبيرا لم يستطع ان يسمو الى مستوى الاحداث التى لم يكن فيها شخص ابن البغدادى الا اداة تافهة ، لا يعبر هجوه عن عمق الشاعر او تفهمه للوضع الذى كان ابن البغدادى يمثل فيه دور الجلاد .

وهكذا تجد ان القصيدة التى يمكن ان يقال ان الشاعر فر فيها من المضامين التقليدية كانت اعرق فى التقليد واكثر دلالة على الافق الضيق الذى كان يمتاز به ابن ابراهيم .

وكان لا بد ان يقول شعرا فى فلسطين ما دامت قضية فلسطين قد ملات الدنيا وشغلت الناس ، ويأتى الافق الضيق ليفرغ هذه القطعة من كل احساس شعرى ، وليسقطها من حساب الشعر السياسى او الوطنى فان غريزة الهجو تطفو مرة اخرى على احساس الشاعر حتى يقول

عجبى من ابن يهود يعرق قدره ... ويلوم بيض الهند وهى رقاق
ان كان داء الجهل أعماه فكم ... داء له ضرب الطلى ترياق
كذب اليهود بوعدها بلفورها ... بلفور طعم المسلمين زعاق

وبهذه التفاهة الفكرية والشعرية يتحدث عن الحرب فى شخص هتلر . وكما انساه شخص ابن البغدادى مأساة المغرب الحقيقية ، فقد انساه شخص هتلر الحرب ومأساتها وانساه مدح فرنسا والمباهاة بقوتها محنة الانسانية فهجا هتلر بمثل ما كان يهجو به اعداءه او اصدقاءه الذين تخلوا عن صداقته ، ومدح فرنسا بمثل ما كان يمدح به قائدا يطمع فى نواله او ثريا يحنو الى صلته . حاول فى هذه القصيدة ان يتحدث عن ضحايا الحرب ولم يكد يبدأ حتى تذكر فرنسا مرة اخرى ، فقد كان أفقه الضيق ينحسر عندها ، وكان تفكيره يدور فى فلكها ، وبذلك كان هذا النوع من الشعر السياسى لا يقل تفاهة عن شعر الهجو او المدح ،

ومثال يمكن ان نلاحظه فى شعره الاجتماعى الذى تمثلـــه قصيدتا «الاصلاح» و«البؤساء» فالافق الضيق لم يستطع ان يرتفع بشعره الى مستوى الموضوع الذى تناوله والذى لا اشك ان مناسبة ما أوحت به .

وهذا الافق الضيق يكاد يطبق على الشاعر حتى حينما يخلو فى شعره الى نفسه ـ وخلواته النفسية ذات ابعاد رائعة أحيانا كما سنرى ـ فقد ضاق ذرعا بحظه العاثر ، وكان يتوهم ان مهنة الشعر هى السبب ، فانطلق فى بداية طيبة لقصيدة كادت ان تكون رائعة :

صنعـة الشعر لقد عـــا ... فتـــك نفسى فاتركينـــى
أدبـــرى عنـــى بوجـــه ... والقفـــا منـــك أرينـــى
استريحـــى وأريحـــى ... منـك ذا الحـــظ الغبيـــن
سئمت واللـــه عينـــى ... مـــن محيـــاك اللعيـــن

ويمضى الشاعر فيطلب لصنعة الشعر ان تتصل بغيره ، ويصف هذا المنكود الحظ برباعيات طريفة ، وهى انعكاس لما يرى عليه نفسه فيقول فى بعضها :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والزميـــه ان تبـــولى ... مفعـــم القلب كآبـــة
واهما من بعد هجـــو ... أنـــه صفى حسابـــه
واخدعيـــه بوصـــال ... منك ينسيـــه كآبـــة
وهـــو لـــولاك عشيرا ... لم يصبـــه ما أصابـــه

واجعـــلى منـه حليفـــا ... لسهـــاد فى الليـــالى
عاصرا فكـــره عصـــرا ... فى يتيمـــات الـــلآلى
مجهـــدا نفسه حتـــى ... يجتليهـــا ذات بـــال
ثم يهديهـــا الى مـــن ... بقريـــض لا يبالـــى

هذا الجو الرائع الذى وفره لهذه القصيدة سرعان ما حد أفقه مدح تافه أزرى بهذا الشعر، فتخلص ـ فى غير ما حاجة الى التخلص ـ ليمدح الكلاوى بمثل هذا الهراء التافه :

بل انا ان قلت شعـــرا ... جئتـــــه طالب درس

وتلقانـــى بأفكـــا ر لها اشعـــاع شمس
فهو لى صيقـل فكـــر وهـــو ريحانـــة نفسى
يتجـلى لـــه نـــور ان ذاك النـــور قدسى

* * *

صنعـة الشعـر امنحينى مـــن يواقيت النظـــام
برصين القول جـــودى انه فخـــر الانـــام
وهمـــام مـن همـــام من همـــام من همـــام
غـــرر الشعـــر هبينى انـــه الباشا التهامـــى

انه الافق الضيق يحد من انطلاقة نفسه ويمنعه ان يخلو اليها حتى فى خلواته الثائرة التى توحى بها بداية القصيدة .

وهذا الاضطراب الغريب فى نفس الشاعر كما تصوره هذه القصيدة ليس الا تعبيرا عن الحياة التى عاشها ، فهو متمرد على واقعه متمرد على كل ما يملك وأحسن ما يملك وهى صنعة الشعر ، ولكن الواقع لا يلبث ان يشده اليه فيعود الى مدح ولى نعمته ويتخلى عن الافق البعيد الذى بدا ينطلق فيه ليعود الى افقه الضيق ، الى الكلاوى الذى يرى فيه شعاع فكر وفخر أنام .

واذا كانت هذه القصيدة قد فضحت فشل الشاعر فى التحرر من أفقه الضيق ، فقد استطاعت ان تصور حياته اروع تصوير وان ترسم أروع رسم صراع الارادتين ، ارادة التحرر :

قبـــح اللـــه زمانـــا عاش فيه الحر رقـــا
وتـــرى رب القـــوافى يسعـــد الغيـــر ويشقى

وارادة العبودية :

فيـــه ان قلت مديحا نـال مدحى كـــل مـدح
وكفـــانـــى أننـــى فى روضـــة طائـــر صدح

ولكن هذا الافق الضيق استطاع ان يتسع قليلا ليطل على أبعاد نفسية

وشخصية فى الشعر الذاتى الذى قاله الشاعر لنفسه ولم يكن فيه مرتبطا بشخص يمدحه او يهجوه ، ولم يكن يفكر فيه فى مجتمع خاص او عام .

لقد خلا الشاعر ابن ابراهيم الى نفسه طويلا ، ومن المؤسف الا يكون انتاجه الشعرى من الوفرة بمقدار وفرة خلواته ، ولكن هذا القليل الذى تركه قد شق آفاقا شعرية طيبة قد تشفع لما رأيناه من ضيق الآفاق .

وتمثل قصيدة «اعترافات» هذه الآفاق النفسية التى حاول ببعض شعره ان يشق طريقه اليها ، وأرى ان هذه الآفاق متجلية بخاصة فى التناقض الذى يشهده بين واقعه وما اليه يطمح :

لكم أدعى علما وحسن ثقافة ... أخو الهزل فى جد وذو الجد فى الهزل
نعم أنا ذو فضل فغطته سيرتى ... وما جاهل الا ومن فوقه جهل
وأرمى بنفسى فى صفوف أراذل ... فما انا ذو فضل وان كنت ذا فضل
وقضيت عمرى هكذا فى تناقض ... ولست لهم شكلا وليسوا على شكلى

ويروق شعره كلما كان ملتزما مع حياته ، وقد ابدع فلخص هذه الحياة فى هذه القطعة الرائعة :

ولست ترانى واصفا غير خمرة ... اذا كنت فى حفل وطاب لى الشرب
يمازجها الساقى فيطفو حبابها ... أيطفو بسطح الماء لؤلؤه الرطب
او الحدق المرضى وهدب شفارها ... اذا ما ارتخت فى خدها تلكم الهدب
أو البانة الميساء أحرم ضمها ... وقد ضمها ويلاه فى أهيف ثوب

هذا هو الافق الذى شقه ابن ابراهيم ونجح فيه : خمريات وغزل مادى وتعبير عن الحياة التى استغرقت حياته .

وقد بلغ غاية الروعة فى تصوير وضعه الاجتماعى فى الحوار الطريف مع الفأر ، فقد وصف بؤسه وحرمانه ، وعاد ليؤكد ان الادب والشعر هما سبب حرمانه وان المال هو سيد الحياة ، ولكنه كان أروع منه وهو يخاطب الفأر :

كان بيتى كسماء ... نحن فيه فرقدان

وتفوق على نفسه فى هذه القطعة :

بسم الفـــــأر بخبث　　بسمة فيهـــا ازدرانـــى
قال لى : ـ والقول منه　　مثل سهم قـد رمانى ـ
كـــل ما قلتـه حـــق　　وغنـــى عـــن بيـــان
وهو عذرى حين عـن بيـــــتـــك ألـــوى لعنانـــى
ما الذى افعـــل فى أر　　كـــان بيت رمضانـــى

ويستمر الحوار رائعا قويا :

قلت والقلب من الغيـــــظ يعانى مـــا يعانـــى
هكذا تنكـــر عهـــدى　　هكـــذا ياابن الزوانـــى
أمن أجل المال أبقـــى　　مفردا مـــن دون ثانى
وكذا حتى من الفئـــــران أرمـــى بهـــوان

ان ابن ابراهيم كا نفى حاجة الى الاخلاص لالتزاماته واهتماماتـه وحينما كان يخلص كان يقول شعرا .

ولن تنسينا آفاق المضمون آفاق الشكل فى اختيار الكلمة والعبارة والاسلوب ، ولعل افق الشكل كان اضيق من افق المضمون ذلك ان اختياره للكلمة والتعبير والاسلوب لا يدل على عمق ثقافته الادبية ، ولا يدل بالتالى على انه كان يتوفر لشعره بقدر ما كان يتوفر للذات حياته ، لقد امتاز شعره بالسلاسة ، ولكنه امتاز كذلك ببساطة التعبير بساطة تبلغ حد الانحلال فى كثير من الاحيان ، وفى شعره كلمات وعبارات وأبيات تكاد تكون عامية ساذجة ، ولذلك تجده يلجأ الى مثل هذه الكلمات : من باب أولى واحرى ـ انظرى غيرى ـ سيما ـ طرا ـ لعله ـ سوائى ـ قيل وقال ـ الشكوى الى الله وحده ـ كذا التاريخ ، كيف المآل اذا تكون الحال ـ .

وتبلغ به السذاجة احيانا حتى يصبح شعره كمنظومات الوعـظ والارشاد ، وتمثل هذه السذاجة فى الاسلوب قصيـدة «الاصلاح» التى كانت أشبه بمنظومات وعظية رغم ما توفر لها من ثورة على الاوضـاع الاجتماعية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكن اسلوبه يمتن ويقوى كلما توفر فى شعره الاخلاص لاهتماماته والتزامات حياته ، ولذلك فالجيد من معانيه يوفر لها فى الغالب اسلوبا جيدا مختارا ، وذلك عكس الرأى الذى عبر عنه حينما قال :

واذا ما القريض قد راق لفظا  فالمعانى من باب أولى وأحرى

ان معانيه هى التى كانت تسوق الفاظه وتعابيره واسلوبه ولذلك فكلما وفق فى معنى جيد استطاع ان يصوغه فى اسلوب جيد .

تلك آفاق الشاعر ابن ابراهيم ، وما أحسبنى ظلمته بقدر ما انصفته، واكبر انصاف لشاعر جنت على شعره حياته ، هو التجرد من تأثير هذه الحياة ان سلبا وان ايجابا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com